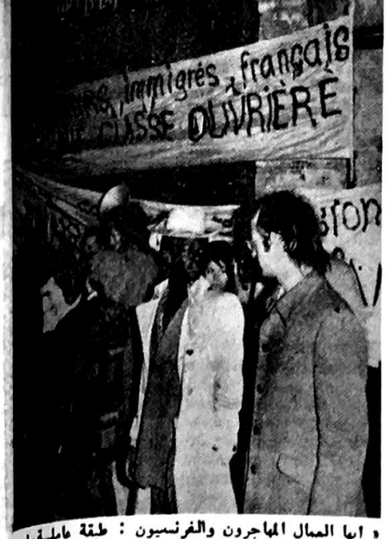

« ايها العمال المهاجرون والفرنسيون : طبقة عاملة واحدة »

البروليتاريا العربيّة في المهجر الفرنسي :

هي أيضًا ، مطلوب منها دفع ثمن أزمة الرأسمالية الفرنسية !

بقلم : علي بن عاشور

تزداد الازمة الاقتصادية الخانقة ، التي تعصف بالعالم الراسمالي ، حدة يوما بعد يوم . وهي تبدو اكثر فاكثر استعصاء على الحل ، خاصة في المدى الزمني المنظور ... حيث تم اثناء اللقاءات المتعددة بين المجموعات الاقتصادية (الجغرافية وغير الجغرافية) وضع بعض التصورات الممكنة لحل يحفظ هيمنة الراسمالية ، لعدد من العقود من الزمن ، على العالم . لكن كل تلك التصورات كانت تحتاج لتطبيقها فترة زمنية لا يتحملها الوضع . فرياح التغيير الجذري والانهيار بدات تدق كل الابواب منذرة بايام عجاف على طبقة تسلطت ، وما زالت ، على جميع مظاهر الحياة منذ ثورتها الكبرى في عام ١٧٨٩ .

احدى التعبيرات العملية المحسوسة لهذه الازمة ، التي لا يمكن ان تخفى على احد ، هي البطالة ، فمنظمة العمل الدولية التابعة للامم المتحدة ـ وهي عادة تقدم ادنى الارقام التي تعطيها احصائيات الحكومة الرسمية ـ تقول في آخر تقرير لها : ان عدد العاطلين عن العمل في اوروبا والولايات المتحدة قد يزداد في عام ١٩٧٥ بمقدار ٦ ملايين عامل عن عام ١٩٧٤ .

الفئات المتضررة ، قبل غيرها ، من جراء ازمة البطالة هي :

● ـ الطبقة العاملة الشبابية : اظهر تحقيق هام اجرته مؤخرا مجلة « لونوفيل ابسرفاتور » أن ٢/٣ من الآباء والامهات الفرنسيين ، الذين استفتتهم المجلة ، املهم الوحيد هو ان يجد ابناؤهم عملا . وهذا ناتج عن عدم استجداب فرص عمل كافية لاستيعاب الاعداد الهائلة من الشبيبة التي تدخل سنويا سوق العمل .

● الطبقة العاملة النسوية : يستغني ارباب العمل عن النساء باعتبارهن لا يقدمن مردود عمل مثل الرجال وبالتالي فان فائض قيمة عملهن لا يسدنهم الراسمالية المنازعة .

● الطبقة العاملة الهجروية : يبلغ عدد العمال المهاجرين الاجانب في اوروبا ١٨ مليونا وفي امريكا ٨ ملايين . ولهذه الفئة وضع خاص اذ تعتبر ، دون غيرها ، بالنسبة للراسمالية اهم احتياطي يساعدها على التخفيف من حدة الازمة وذلك ب :

١ ـ احداث صراع في سوق العمل بين بروليتاريا البلد الاصلي والمهاجرين حيث يقبل هؤلاء بادنى الاجور ، مما يحدث تصدعا في الجبهة العمالية ، مما يساعد على تمييع الصراع الطبقي .

٢ ـ طرد المهاجرين مؤقتا عندما تشتد الازمة لتعيدهم عندما تخف او ، وهذا دائما الارجح ، عندما تشتد احتجاجات بلدان المهاجرين الاصلية ، بحيث تصور الحكومات الاوروبية لعمالها : ان بلدان المهاجرين ـ خاصة اذا كانت من الغنية بالمواد الاولية ـ هي سبب الازمة مما يبعد انظار العمال ولو قليلا عن الاسباب الحقيقية . وبهذا الصدد ، مثلا ، طرح في تشرين الثاني ١٩٧٤ ، في البرلمان الاتحادي السويسري مشروع طرد نصف العمال المهاجرين ، الا ان المشروع فشل بنسبة ٥٩٪ ، وفي المانيا وضعت قوائم مئات الآلاف من المهاجرين ، كمرشحين للطرد في حالة الضرورة .

اشكال الاضطهاد

كانت هذه مقدمة ضرورية للدخول في الموضوع الذي يهمنا هنا وهو قطاع واسع من الهجرة العمالية في احد البلدان الاوروبية التي تعمل فيها اكبر هجرة في اوروبا . هنا القطاع هو البروليتاريا العربية في فرنسا ، التي تعد ـ رسميا ـ بمليون ونصف المليون عامل من اصل قرابة ٦ ملايين مهاجر يشكلون ٢٢٪ من القوة العاملة في فرنسا .

تعاني البروليتاريا العربية في فرنسا من مشاكل عدة يمكن ايجازها في :

١ ـ العمل في اقسى الاعمال واقلها اجرا واسوئها شروطا نتيجة عدم تاهيلهم الفني .

٢ ـ التمييز في العمل من ناحية التاهيل والعلاوات وبقية الفئات الذي تمنحه الراسمالية للعمال .

٣ ـ الشروط الاجتماعية السيئة : السكنية ـ الصحية .. الخ خاصة ان جلهم عليه ان يرصد نسبة من اجرة البائس لاطفاله الجائعين في البلد الاصلي .

٤ ـ العنصرية : اذ تشن ضدهم حملات عنصرية على فترات تقودها منظمات فاشية وتصب في مجرى تمييع الصراع الطبقي وتذكية النعارات القومية في صفوف الطبقة العاملة الفرنسية نفسها .

بعد الحملة العنصرية الكبرى ، في خريف ١٩٧٣ ، حيث بدا من شدة ضراوتها وشاعتها خاصة في عالم « متمدن » وحساس للديمقراطية ان العالم يتجه نحو البربرية محققا الاختيار القديم الذي طرحه ماركس على البشرية : « اشتراكية ام بربرية » ، اوقفت الجزائر هجرتها الرسمية الى فرنسا بينما راحت كل بلدان المغرب العربي تبحث عن اسواق جديدة لصادراتها البشرية ، لكن دون جدوى فاوروبا متازمة واسواقها مشبعة ، لذلك لم يتمكن في السنتين الاخيرتين من التسلل اليها سوى عدد من الآلاف بشكل غير رسمي ـ اي ليس عن طريق العقود الحكومية ـ

تفاقم الوضع وبداية التحرك

كانت البروليتاريا العربية في فرنسا قبل ثورة ١٩٦٨ تعد قطاعا غير مسيس ، لا يهمها الا البحث عن الرغيف حتى وان كانت شروط عملها مثل التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر ، تاركة مهمة الدفاع عنها لحكوماتها . الا انها بعد الثورة ، وخاصة منذ الحملة العنصرية الكبرى ، بدات تحس ، بشكل لم يسبق له مثيل ، انها لم تتحمل قضاياها بنفسها فانها ستبقى دائما تعيش نفس الجحيم . فشرعت في تشكيل تنظيماتها الجماهيرية المستقلة عن تنظيمات حكوماتها البوليسية التي لا يهمها غير انضباط العمال في العمل وخضوعهم للشروط التي يفرضها عليهم ارباب العمل اضافة لكونها عيونا تحصي حركات العمال حيث ما ان يعودوا لاوطانهم لزيارة عائلاتهم حتى يتلقفهم البوليس « ليدفعوا جزاء ما فعلوا » ! كانت التنظيمات الجماهيرية تلك اولى التعبيرات العملية عن برامج ضبابية لم تدرس بشكل كاف مجمل الظروف الموضوعية والذاتية للبروليتاريا العربية ، وبالتالي لم تكن راديكالية وشمولية راديكالية وشمولية الاغلال والآلام التي تعيشها .

مع ذلك ، خاضت هذه التنظيمات في السنوات الاخيرة سلسلة من النضالات في شكل : اضرابات ، مظاهرات ، مهرجانات ، منشورات ... كانت في معظمها احتجاجا عن الاعمال العنصرية وتاييدا لبعض القضايا القومية في الوطن العربي . واذا استطاعت ان تجمع حولها جزءا كبيرا من العمال العرب وترفع شعارات مضادة للراسمالية الفرنسية ، فانها لم تتمكن من القفز بالوعي لديهم الى مستوى الوعي الطبقي ، بل راوح ذلك الوعي في مكانه ، اي انه لم يخرج عن إطار حنين الفلاحين في عودة لارض الوطن غير مراهن عليها ، فبلدانهم تكتظ بمتجولي الشوارع الذين يعودون مساء لينامون مع عائلاتهم على الطوي وينهضون في الصباح جياعا . فكانت تلك التنظيمات بذلك ـ ولا ننكر الايجابيات ـ تخدم بغير وعي الاهداف العنصرية والفاشية لليمين المتطرف الفرنسي ، هذا اليمين الذي لم يكن يرى فيمن يصنعون « مجد الحضارة » سوى همجا لا يستحقون الحياة .

بجانب تنظيمات الهجرة المستقلة ، ظهرت تنظيمات اخرى فرنسية ـ هجروية مشتركة غالبا ما اتخذت شكل لجان في الاحياء والمدن . وكانت مهمتها ، مثل بقية المنظمات الفرنسية ذات الطابع الانساني البرجوازي البحت ، الدفاع عن قضايا العمال المهاجرين . وعوض ان تعمل على التحريض اليومي في اوساط العمال الفرنسيين والمهاجرين باتجاه وحدة نضالاتهم سواء منها الجزئية او الشاملة، حسب برامجها المعلنة هي نفسها ، راحت تعمل على ان يكون العمال العرب المنضويين تحت لوائها احتياطيا كميا لهذا الحزب او ذاك . ولم تكن برؤيتها الضحلة الا عزاء للعمال العرب والمهاجرين عن آلامهم ونهر دموعهم ، في حين كان التشيطون منهم يضيعون معها طاقاتهم في الركض الذي لا يقدم الثورة قيد انملة .

الشيء الوحيد الايجابي الذي قدمته تنظيمات العمال العرب والهجرة المستقلة بتنسيقها مع التنظيمات المشتركة للفرنسيين والمهاجرين كان فتح مراكز لمحو الامية المتفشية في اوساط العمال المهاجرين ، اضافة لبعض الحملات التي قامت بها لصالح العمال الذين يعيشون في فرنسا بصورة غير « قانونية » مثل تجمع شباط ٧٥ في جنوب فرنسا والاضراب عن الطعام الذي قام به بعض مناضليها في الكنائس عدة مرات ، وان كان مردود كل ذلك بقي في النهاية يسيرا .

نتيجة الضغط الذي قام به اليسار المتطرف من داخلها وخارجها ، لتحمل مشاكل العمال العرب والمهاجرين ، قامت النقابات باستحداث لجان فرعية لها متخصصة في دراسة مشاكل الهجرة لرفعها ضمن المطالب العامة للنقابات . ويشرف على هذه اللجان عادة المنتقبين من المهاجرين . وقد كانت قبل ذلك لا تعطي لمشاكل الهجرة اية اهمية ، فقد كان يمارس على المهاجرين التمييز في العمل او يطردون على مرأى ومسمع النقابات ولا تحرك ساكنا ، بل غالبا ما عارضت هذه النقابة او تلك تحركات للعمال العرب باعتبار ان المبادر لها لا يتفق معها سياسيا . ان النقابات وان طرحت العديد من البرامج لحل مشاكل العمال المهاجرين في مؤتمراتها سواء المركزية او الفرعية او المحلية ، فانها لم تدخل ذلك حيز التطبيق ، باستثناء مبادرات بعض الفروع او الاتحادات المحلية للكونفدرالية الديمقراطية للعمل .

ازمة الراسمالية ومصير المهاجرين

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت اشهر الصيف في فرنسا : فترة للهدنة الطبقية حيث تعطل الاغلبية وتغادر ضجيج الآلات والعمل ومعها تعطل كل الاحزاب والنقابات ، الا انه لاول مرة يكون صيف ١٩٧٥ على غير العادة ، فان خفت النضالات الطبقية لكنها لم تتوقف : ففي التجمع الكبير الذي دعت له نقابات اليسار ، يوم ١٠ تموز ٧٥ ، لاماكن العمل المضربة ، كان هناك ٤٥٠ مصنعا مضربا منهم ٥٠ مصنعا في حالة « اضراب بري » * لعدة اشهر .

ولم تتوقف الاضرابات البرية على قطاع واحد بل شملت معظم القطاعات الانتاجية ، وما زال بعض المصانع مستمرا في ذلك منذ بداية عام ٧٥ حتى الآن ... حيث يدير العمال الانتاج بانفسهم ويبيعون منتوجهم بانفسهم لتغطية المصاريف واقتسام الارباح، وذلك رغم انهزامية النقابات ، فقد قاطع مندوبي ١٥٠ مصنعا مضربا مقابلة القادة النقابيين في تجمع ١٠ تموز المذكور احتجاجا على مواقفهم التوفيقية .

مع بداية السنة الجديدة ، عادت الطبقة العاملة الفرنسية اكثر من اي وقت مضى الى المطالبة بتحسين شروط حياتها ، فاندلعت الاضرابات من جديد (عمال السلك الحديدية ، السيارات ، البريد ، الاذاعة والتلفزيون ...) خاصة وان العمال العائدين من العطل وجدوا العديد من المصانع مغلقة امامهم بسبب الافلاس او ان الآلاف منهم مطرودين لينضافوا الى الميلون ونصف الميلون عاطل عن العمل (عندما انتخب جيسكار ديستان عام ٧٤ كان عدد العاطلين ٤٠٠ الف فقط) ، اضافة للغلاء المتصاعد بشكل لم يعد يجد العامل في اجره البائس ما يغطي تكاليف بقاءه قيد البقاء .

امام هذه الوضعية ، يجد العمال العرب انفسهم ، بجانب الهجرة ، اكثر المتضررين خاصة وان نسبة كبيرة منهم يعملون في قطاع البناء ، هذا القطاع الذي يعد اكثر القطاعات ركودا وبالتالي اكثرها تسريحا للعمال .

وهنا ، واعتبارا للظروف الخاصة للعمال العرب المهاجرين التي ذكرناها باقتضاب ، تحاول تنظيمات الهجرة وغيرها من التنظيمات والهيئات المناضلة لصالح الهجرة ان ترفع مطالب العمال العرب بشكل خاص ومستقل لانتزاعها من البورجوازية الفرنسية . ومع ان ذلك يسجل كما سجلت نضالات السنوات الاخيرة دخول البروليتاريا العربية في المهجر الفرنسي معمعة الصراع الاجتماعي الذي تخوضه وتقوده البروليتاريا الفرنسية ، فان النضال من اجل تحقيق مطالب العمال العرب سيبقى مبتورا ما لم توضع تلك المطالب ضمن مطالب الطبقة ككل بصورة شاملة شمولية الازمة التي تتخبط فيها البورجوازية الفرنسية .

اذ ان الشعار الذي رفعته في كل مرة النقابات وتجمعات الهجرة ولم تمارسه « ايها العمال الفرنسيين والمهاجرين ، رب عمل واحد : كفاح واحد » صحيح نظريا الى ان يتحول الى نضال يومي، فمحاولة اي تجزئة تخدم بالنهاية الراسمالية المحتضرة .

فمصير العمال الالمان المهاجرين ، الذين اختاروه بانفسهم ، وراء متاريس الكمونيين للدفاع عن كومونة باريس عام ١٨٧١ ، ما زال اليوم مطروحا على البروليتاريا العربية في المهجر الفرنسي للنضال بجانب الطبقة العاملة الفرنسية من اجل تحقيق المجتمع الشيوعي . ■■

* « الاضرابات البرية » ، اي التي لا تقودها النقابات رسميا ولا تسيطر عليها .

« مظاهرة مضادة للعنصرية امام مسجد باريس »